اجتهادات
الحكمةُ الفطرية

(الرجلُ الأكثرُ حكمةً الذى عرفتُه طوال حياتى لم يقرأ ويكتب. كان يستيقظُ مع تباشير الفجر، ويغادرُ إلى الحقل مقتادًا حيواناته التى يرعاها ويقتاتُ عليها). هكذا افتتح الأديبُ البرتغاليُ الكبيرُ جوزيه ساراماجو، الذى بُدئ فى الإعداد للاحتفال بمئويته الأولي، خطاب تسلمه جائزة نوبل فى الآداب عام 1998. خطابُ مُلهمُ لخص فيه بأسلوبٍ بديعٍ سيرته الحافلة منذ طفولته، وعلاقة أدبه بالحياة. وأهم ما يلفتُ الانتباه فى هذا الخطاب احتفاؤه بجده الأُمي، الذى علمه ما لم يتعلمه من غيره، وترك فيه أثرًا لا يُضاهي رغم أنه عرف الكثير من المثقفين والمفكرين. لكن حكمة رجلٍ أُميٍ فقيرٍ فاقت كلَ معارفهم.

إنها الحكمةُ الفطريةُ التى يودعُها الله لدى قليلٍ من خلقه، فنجدُ أن فهمَ هذا أو ذاك منهم لأمرٍ أو آخر أصحُ أو أفضلُ ممن يظنُ الواحدُ منهم أنه يعرفُ ما لا يدركُه غيره. إنها الفطرةُ السليمةُ الطيبةُ التى لم يبق منها إلا القليل، بعد أن دمرت أنماطُ الحياة الحديثة الروح، واختزلت البشرَ فى أجسادهم. ولهذا فما أروع أن يختار ساراماجو حكمة جده الفطرية محورًا لخطابٍ يلقى فى العادة اهتمامًا واسعًا فى العالم كله, ويستعيدُ ما سمعه منه ذات ليلة: (يا جوزيف. سننامُ الليلة تحتَ شجرة التين هذه. إنها الشجرةُ الأكبرُ والأقدمُ عمرًا). ويشرح بشكلٍ غير مباشر كيف أثرى نومهُ تحتَها، وحكاياتُ جده، خياله. وفى اقتران هذا الثراء بفقر الواقع الذى عاشه، نجدُ الينبوع الأول لأدبه المُلهم الذى قالت عنه لجنةُ منح الجائزة إنه (كشف مواطن ملتبسة فى واقعٍ غامضٍ وعصيى روَّضه بالخيالِ والسخرية).

ولعله أراد فى خطابه أن يوضح بعض جوانب هذه الخلاصة المعبرة التى وردت فى بيان منحه الجائزة. وربما يُدهَشُ كثيرون حين يعرفون أن هذا المُتيمَ

بالجذور والحكمة الفطرية كان ماركسيا قال يومًا إنه يشعر كما لو أن لديه هرمونًا يُعجزُه عن مقاومة أن يكون شيوعيًا. ولهذه الدهشة ما يُبررُها فى قلة المعرفة بأصول الماركسية, بعيدًا عن تشويهٍ تسبب به كثيرُ من الأحزاب التى انتسبت إليها, أو ترتب على دعاية خصومها ضدها.